شفيق مقار

٣ ـ في جذور الشر

الذئب الآتي من عند الآله

د . ستيوارت عن هرتسل

اليهود ، كم نظلمهم ونتجنى عليهم

في الغرب ، وفي بريطانيا بوجه خاص (وهي بلد يغبط نفسه كثيرا على تحضره و « تسامحه ») يعتبروننا متوحشين لاننا نحارب اسرائيل والصهيونية . واحسن الناس نية تجاهك ، في ذلك المجال، هو الذي يقول لك وهو جالس مستريح في لندن او باريس « يا اخي! آن الاوان لتنضجوا ! ما هذا العداء الذي لا ينتهي ؟ ماذا تريدون ؟ ان تبيدوهم ؟ ان تلقوا بهم في البحر حقا كما كنتم تقولون ايام ناصر ؟هذه اشياء عفى عليها الزمان ، وهؤلاء اليهود بشر مثلكم . فلم لا تصبحون والهيين وتتصالحون معهم لتعيشوا ، وتدعونا نعيش في سلام ؟ انظروا حولكم وافعلوا ما تفعله الامم الناضجة : وها هو العالم حافل باصدقاء اليوم الذين كانوا اعدى الاعداء في الامس . » اشياء من هذا القبيل .

ودائما ترد كل المسائل الى هذا المعيار الجميل : معيار التحضر والنضج ، حتى عندما ينتاب اليهود سعار من سعاراتهم الضاربة في القدم ، ويغلبهم شبقهم القومي الى الدم ، فيستديرون بفتة وينهشون مزقة لحم مقطرة دما من الجسد الحي العنين لهذا البلد العربي او ذاك. ودعك من الاقلام والضمائر المومس (وما اكثرها) التي من طول ما غمست وتمرغت في نبع الولاء الصهيوني المسموم وصديد المقت للعرب نتنت حتى لم يعد يجدي مجرد التعجب مما تكتب او استغراب ما تقول . انظر فقط الى تلك الاقلام المهذبة (التي ينتمي المستر ستيوارت الى ناديها) وهي تسارع ،في كل مرة ، فتبرز كل الجرائم بقولها اه ! ما باليد حيلة ، وكل هذا يؤسف له ، لكن على العرب ان يدركوا ان كل هذه الاشياء المحزنة نتجت دائما عن عدائهم ، فليتهم يتعلمون كيف يعاملون اليهود باعتبارهم بشرا مثلهم .

لكن تلك ليست المسألة . المسألة هي هل العرب بشر حقا ؟

في ١٨ اكتوبر ١٩٧٣ ، دارت مناقشة حامية بين المعارضة (حزب العمال ، في ذلك الوقت) والحكومة (برئاسة تد هيث زعيم المحافظين السابق) حول حظر تصدير الاسلحة الى الشرق الاوسط . وخلال المناقشة جاءت هذه الكلمات على لسان المستر ر . ج . ماكسويل هيسلوب (عضو المجلس آنئذ عن دائرة تيفرتون) :

« بعد ستة اسابيع من حرب الايام الستة ، ذهب ستة من اعضاء مجلس العموم (من الحكومة والمعارضة) الى اسرائيل والاردن ،ضيوفا على حكومتي البلدين . ولقد مررت خلال تلك الرحلة بلحظة كانت مرعبة حقيقة بالنسبة اليّ . فقد دعينا الى حفل غداء اقامته تكريما لنا لجنة الشئون الخارجية بالكنيست في القدس (المحتلة) . وبعد ان انتهينا من تناول الطعام ،تحدث الينا رئيس اللجنة بافاضة بالغة وبشكل بعيد تماما عن الاعتدال ، عن العرب . وعندما توقف لحظة ليلتقط انفاسه ، وجدتني مضطرا ان اقول له : « يا دكتور هاكوهين ، معذرة اذا قلت لك اني احسست الان بصدمة عميقة وانا اسمعك تتحدث عن بشر مثلك ومثلي بالفاظ تشبه تماما تلك التي كان جوليوس ستريخر يتحدث بها عن اليهود . الم تتعلموا شيئا ؟ » ولسوف اذكر رده عليّ الى يوم مماتي . فقد خبط المنضدة بقبضته وصاح قائلا : « لكنهم ليسوا بشرا . ليسوا اناسا .انهم عرب .» (١)

وبطبيعة الحال فانه لا يوجد كثيرون في بريطانيا (أو غيرها) يقرأون مضابط جلسات مجلس العموم . واعتقادنا انه لا مشاغل المستر دزموند ستيوارت ولا ضيق وقته يسمحان له بممارسة هذه الهواية الممتعة التي تزود المرء في مرات عديدة بأشياء تفتح العينين حقا ، ولكن الم يعثر المستر ستيوارت او غيره من الكتاب غير الهوج عديمي التوحش ـ اثناء رحلته الممتعة وراء صورة سيدنا هرتسل الشبيهة بايقونة من زجاج ملون ـ على قول كهذا ؟ :

« لنفرض اننا نريد ان نظهر بلدا من الوحوش الضارية . اننا لن نحمل القوس والنشاب طبعا ونذهب فرادى في اعقاب الدببة كما كان الناس يفعلون في اوروبا في القرن الخامس الميلادي ، بل سننظم حملة صيد جماعية ضخمة ومجهزة ، فنطرد الحيوانات ، ونلقي وسطها بالقنابل شديدة الانفجار .» (٢)

ولكن لمن تقول ذلك ؟ للاوروبيين « المتحضرين » ؟ وبالحقيقة ،الا نتجنى عليهم ، اولئك الاوروبيين ، وبين صفوفنا نحن العرب من يبدو من مواقفهم انهم ـ كاولئك الاوروبيين المتحضرين تماما ـ يعتبرون اساءة الظن باليهود الى مثل ذلك الحد ضربا من التطرف والجمود يقرب من التوحش ، لانه بعيد عن « الواقعية » و « الاعتدال » ؟ واساس اللعبة هو : « انظر يا اخي. على طول التاريخ تعاركت الامم والشعوب وحاربت بعضها بعضا ، ثم جنحت الى المصالحة والتفاهم والتقارب ، لان الكل ـ في النهاية بشر . فهل سنشذ نحن العرب دون غيرنا

---

(١) نشرة هانسارد المتضمنة المضابط الرسمية لمناقشات مجلس العموم البريطاني،المجلد ٨٦١ ، العدد ١٥٩ ، ١٨ اكتوبر ١٩٧٣،ص٥٠١.

(٢) تيودور هرتسل ، « الدولة اليهودية » ، طبعة لندن ١٩٤٦، ص ٢٢١ .

عن كل تلك الامم والشعوب ؟»

وبصرف النظر عن انه ليس من حقنا فقط ، بل من متطلبات بقائنا ، ان « نشذ » نحن العرب ، في هذه الفترة الرهيبة من تاريخنا، عن كل الامم والشعوب في حكاية « الصلح خير » هذه ، لان امة من امم العالم (باستثناء امة الهنود الحمر التي ابيدت في اميركا الشمالية وتجري حتى الان عملية التصفية النهائية للفلول التعسة العارية المتبقية من ابناء عمومتها بأميركا الجنوبية صيداً من الجو بالهليكوبتر) امة من امم العالم خلا الهنود الحمر لم تواجه في التاريخ كله بما يواجه امة العرب السمر . فمن حق العرب ان يشذوا ومن متطلبات بقائهم ان يحتاطوا لانفسهم من جلاديهم. وبصرف النظر عن ذلك فان حكاية التصالح والواقعية والاعتدال هذه يمكن ان تكون ممكنة بين « البشر » وبعضهم بعضا . اي القرناء والانداد . انظر الى الهنود الحمر ، مثلا ، وسل نفسك : هل كانوا بشرا ؟ ومنذا الذي حاربهم وصالحهم بعد اذ حاربهم يا ذوي الالباب ؟

ومصيبتنا ، نحن العرب ، اننا لسنا من امم العالم الثالث المتخلف التي يعد المتقدمون العدة من سنوات لحل « جذري » معها حول مشكلة المواد الاولية والارض الزراعية والطعام (٣) ، فحسب ، بل واننا عرب . وكل من قرأ التاريخ يعرف جسامة الذنب العظيم الذي ينطوي عليه كوننا عربا (٤) . لكن المستر ستيوارت ومن هم اهل تحرر وسعة افق وحب للانسانية وتمسك بالقيم العليا المتحضرة مثله ، لا يأخذ علينا ذلك . بل هو صديق لنا . ولا يتمنى لنا بكل تأكيد مصير الهنود الحمر الذين يغلب على الظن انه يشعر بالحزن من اجلهم.

ولقد يبدو من كل ما نقول اننا نأخذ على المستر ستيوارت او غيره من « المتحضرين » ما يتحلون به من خصال مهذبة تتمثل في التسامح وعدم الانحياز ، بل ولقد يرى البعض اننا ـ بهمجية عربية غليظة ليست بمستغربة منا ـ كنا نود من المستر ستيوارت ان يفكر في اليهود بالسوء لا سمح الله ، واننا ـ وقد وجدناه ويده في الماء لا في النار التي نجد ايدينا نحن الخشنة غير المهذبة فيها ـ نناقش كتابه (الذي ما ناقشناه الا بوصفه نموذجا لاقصى وافضل ما يمكن ان يذهب اليه الفكر الاوروبي المتحضر في تناوله للمسائل المتعلقة بقضايا الحياة والموت فيما يخصنا) نناقشه بسوء نية وبغيظ مما التزمه من حيدة موضوعية مهذبة تعلو على افهامنا العربية عديمة الحذلقة . لكننا ـ يشهد آله اسرائيل ـ لم يخطر لنا مثل ذلك الكفر الحضاري والانساني ببال، اولا لاننا لا نجرؤ ، وثانيا لان المتحضرين قد يمصمصون بشفاههم استهجانا ونحن اناس نموت شوقا الى ان يوافق الاجانب علينا ويحسن رأيهم فينا ، وكل ما خطر لنا هو هذا السؤال البريء الذي نطرحه على المثقفين الاوربيين المتحضرين (الذين نعتبر المستر ستيوارت عينة جيدة ، غير معادية لنا ، منهم) . « ما دامت المسألة بشر وقيم انسانية وتمدين وما الى ذلك من الاشياء الجميلة ، فهل انتم ايها السادة ـ لا تؤاخذوننا ـ عميان ، أم انكم تتعامون ؟ »

ان المستر ستيوارت يعرف ولا شك ان صراع العرب مع الصهيونية صراع حياة او موت (مهما تكاثفت الاكاذيب التي نريد ان توحي بأن ذلك قد لا يكون حقيقيا تماما ، وانه لولا سوء طويتنا وسوء ظننا ، نحن العرب ، ولولا عدوانيتنا ، لكنا استطعنا العيش مع الصهيونية عندما حلت بأرضنا ، في سلام ، فكفينا المؤمنين شر القتال ، واستفدنا من « جيراننا » الجدد الطيبين أيضا ، لانهم جاءوا يحملون الى مجاهلنا العربية القاحلة المظلمة مشعل النور والتقدم والحضارة) مهما كثرت تلك الاكاذيب ، بل ووجدت السنة عربية توشك ان تهمهم بها ، فان ذلك لا يخفى عن كل ذي عينين في رأسه القبيح ان المسألة لا هي مسألة جيرة ، ولا هي مسألة تقدم وحضارة ، بل مسألة غزو واجتياح وازاحة ثم اماتة فابادة . ومع ذلك ، فان صديقنا المستر ستيوارت ، الذي كتب عن آلام النكسة ، وأحزان حزيران ، والذي اختار عالمنا وعصرنا العربي الاسود هذا مجالا لتخصصه واهتمامه ، عندما يكتب عن الصهيونية وعن نبيها هرتسل (وقد صور ليليان (E . Lilien) « نبي الله » موسى في تصميم وضعه لنافذة من الزجاج الملون ، فأعطى انشاء دولة اسرائيل في حفل مهيب، كان وجه هرتسل ذاك متصدرا القاعة مطلا على الجميع من عليائه) والان عندما يكتب صديقنا ستيوارت عن ذلك « النبي » المدفون في القدس ، فانه يتحفنا بسفر ثمين عنه من ٣٤٥ صفحة قصارى جهده فيه (باستخدام كلماته هو) ان « يرفع من فوق رأس هرتسل الهالة التي البسه اياها من كتبوا سيرته ، و (ينتزع من جبينه) القرنين الشيطانيين (اللذين وضعهما كارهوه هناك) » (٥) ولئلا تغمض علينا الامور ، نفتح آذاننا جيدا لقول المستر ستيوارت :

« وان كان (الكتاب قد جعل هرتسل) يكتشف (بضم الياء) كرجل القى بظل وسيم ، وان كان مزهوا بعض الشيء ، في المرآة (انظر الجرأة !) ، وان كان تنوع اليهود وتنوع مواقفهم من اليهودية قد اتضحا في الخلفية (التي صورها الكتاب) لحياته لا تلك القوة المنيليثية (monolithic) المهولة ذات الوحدة المتراصة والتناغم الكلي التي يخافها اعداؤهم ، فان الكتاب يكون قد حقق بعض الغرض منه ، ويتحقق ذلك الغرض اكثر ان بدا هرتسل من خلاله لا كأحد الشخصيات المميزة للقرن التاسع عشر فحسب ، بل وكانسان غني بالتعقد والتركيب تكلم عن نفسه بالحق عندما كتب ، الى اصدق اصدقائه ، وهو بعد في العشرين من العمر يقول : « ان الاحساس الاساسي في الحياة هو الحزن ، والفرح لا يأتي الا عندما يمهد الحزن للحظة قصيرة . » (ص ٣٤٥) .

---

(٣) انظر مقالينا : « تتار القرن العشرين » ، و « باليه السلام الاميركي على مسرح الشرق الاوسط » ، المثقف العربي ، بغداد : عدد يونيو (حزيران) ١٩٧٢ ، وعدد اكتوبر (تشرين اول) ١٩٧٤ .

(٤) الدكتور حامد ربيع ، « فلسفة الدعاية الاسرائيلية » ، سلسلة دراسات فلسطينية ، معهد الابحاث ، الكتاب رقم ٧٢ ، ص ١٨٩ :

« ان تشويه الطابع القومي العربي لم يكن واضحا في الدعاية الاسرائيلية مثلما هو في السنوات الخمس عشرة الاخيرة . والواقع ان الدعاية الاسرائيلية بهذا الخصوص انما قامت بعملية استغلال لخلفية تاريخية معينة تسيطر على ملامح الصورة العربية عند الغرب . فمنذ العصور الوسطى وعقب تطورات متلاحقة استقرت في التقاليد الغربية صورة لا يمكن ان توصف بانها طيبة لملامح الطابع القومي العربي . ويكفي ان نتذكر الخوف من المسلمين واعتبار الدين الاسلامي خطرا مباشرا على الحضارة الغربية . ثم الربط بين التقاليد العربية والوحشية العثمانية منذ سقوط القسطنطينية حتى اواخر القرن التاسع عشر . أضف الى هذا مفاهيم الف ليلة وليلة والاعتقاد ان المجتمع العربي اصيل في استرخائه وكسله وفساده ، وانه مزيج من الترف البالغ والمكر والخداع والتصوف الممزوج بالقسوة . كل هذه الخصائص كانت قنوات (جاهزة) للدعاية الاسرائيلية لم تكن في حاجة الى شقها ، فانطلقت من خلالها تحقق غاية مزدوجة : خلق الشحنة الانفعالية التي تدفع الى استبعاد المنطق العربي ورفض وجهة النظر العربية بطريقة لا شعورية لا يقبلها المنطق العادي ولا تبررها الا حالة الهستيريا الجماعية التي استطاعت تلك الدعاية أن تخلقها عن طريق تضخيم ذلك الماضي المتراكم من الخوف والكراهية ، ومن ناحية اخرى .. (القيام) بعملية تنظيف جانبية للطابع القومي اليهودي » .

(٥) دزموند ستيوارت ، « هرتسل » ، ص ٣٤٥ .

وباختصار ، وبغير شعر ، يقول لنا المستر ستيوارت ان مؤسس الصهيونية ونبيها لا هو ملاك ولا هو شيطان ، بل انسان ، وانسان حزين لم يعرف الفرح الا لماما ، وانه ـ بأحزانه ، وبسامته المزهوة بنفسها بعض الشيء ، وبانسانيته ـ يطل علينا من مقدمة صورة شعبه ، ذلك الشعب الذي نراه في خلفية الصورة (المرسومة بريشة المستر ستيوارت) شعبا لا هو كتلة متماسكة حول نواتها اليهودية الدموية الصلبة ولا شيء من هذا القبيل الذي تصوره له اخيلتنا ،بل شعبا محزونا ومتدينا ومتنوعا (مشتتا شيعا واحزابا ؟) في يهوديته، فلا هو شعب يخشى من سعاره ، ولا هو شعب يساء الظن بنواياه تجاه احد .والاهم من ذلك كله ان المستر ستيوارت يصارحنا باستقامة بريطانية يحمد عليها انه ما كتب كتابه القيم الا ليقول ذلك ويجعله معلوما للكافة .

وما من شك في ان المرء ،في هذا العالم المليء بالشرور والعنف وسوء الطوية ، يجب ان يغمره الفرح والعرفان بالجميل لكاتب يأخذ على عاتقه ذلك الجهد الضخم لينشر المحبة والوئام والتآخي بين البشر وينقي نفوسهم مما هو متحجر فيها من سوء الظن ومختلف الشرور ، الا ان المرء ، في الوقت ذاته ، لا يملك ـ وهو يرى قومه (العرب المتوحشين) والاقوام المتحضرة التي ينتمي اليها المستر ستيوارت تحولهم بمناوراتها ومبادراتها ومساعيها وعصاها الغليظة الى قبيلة اخرى جديدة من الهنود الحمر ، وتمكن منها قوم هرتسل الطيبين المحزونين ليلغوا في دمها وينهشوا لحمها ويأخذوا ارضها التي أعطاهم الاله حجة ملكيتها من آلاف السنين ـ لا يملك المرء الا ان ينظر الى المستر ستيوارت الصديق بحزن لا يقل حزنا عن احزان هرتسل ويحس بانكسار القلب وهو يسأل نفسه : ان كان هذا قصارى جهد الاصدقاء فما الذي يفعله بنا من لم يكتشفوا بعد اننا بشر ؟

الارض القديمة الجديدة

لذلك نستأذن المستر ستيوارت في ان نترك محاولاته القيمة قليلا ونذهب الى « بطله » فنقرأ ـ في روايته «الارض القديمة الجديدة»(٦) ـ ما هو اكثر مباشرة ووضوحا من اقترابات ستيوارت الدائرية ولمساته الخفيفة (التي قد تكون مرتعبة بعض الشيء ، وقد تكون ملتوية) والتي يتراجع بعدها على الفور ليقف متفرجا من بعيد .

يقول ستيوارت ، في لحظة من لحظات الحدس في كتابه ، ان القدرة « على التمشي متنزها من الواقع الى الابداع الخيالي (او الاختلاق القصصي) ظلت من سمات هرتسل التي لم تتغير » وانه كان يجد « الخصب في الكتابة ، كلما وجد الواقع مجدبا » (ص ٢٩١). ولقد تطلع الرجل الى الكتابة ، واشتغل بالصحافة ، وحقق نجاحا ما في ذلك النوع الصحفي ، شبه الادبي ، الـذي يعرف في الغرب باسم الـ « feuilleton » ،اي الحلقات المسلسلة ، روائية كانت او غير روائية ، التي تنشرها المجلات عادة للتسلية ، كما جرب الكتابة الروائية ، وكتب مسرحيات حقق بعضها نجاحا محدودا ووقتيا للغاية (فلا توجد الان ،حتى في أشد البلدان ولاء للصهيونية ،مسرحيات تمثل لهرتسل) ،وفشل البعض الاخر منها ، ووصفه النقاد الالمان بانه تهريج . فالنبوغ الادبي لهرتسل لم يتعد حدود تسلية قراء المجلات، من جانب ، وانتزاع الضحك بالتهريج من رواد المسارح ، من الجانب الاخر . ومع ذلك فان « هرتسل الكاتب » يهمنا كثيرا ، بالذات لتلك السمة التي ظلت ملازمة لشخصيته والتي وصفها ستيوارت بأنها القدرة على « التمشي » من الواقع الى الاختلاق القصصي ، والتي نستأذن المستر ستيوارت في ان نضيف الى وصفه لها كلمة واحدة، هي : وبالعكس . فبهذه الكلمة تتحدد الصورة وتتضح خطوطها ، فنرى سمة التمشي هذه جيئة وذهابا من الواقع الى الاختلاق القصصي، ومن الاختلاق القصصي الى الواقع ، في اطارها الاوسع ، اليهودي ،الملازم للشخصية اليهودية (انظر الى « التوراة » والعهد القديم كله ،مثلا)، وندرك ـ في الوقت ذاته ـ مدى خطورتها ،تلك السمة ، في حالة هرتسل وحالة قومه على السواء (وانظر الى « تمشيهم » من اختلاقات العهد القديم ومن الرؤية الروائية التي جسدها هرتسل في رواية « الارض القديمة الجديدة » وفي الكتاب الذي اثبت التاريخ انه « ابداعه الروائي » الاعظم : « الدولة اليهودية » ، تمشيه وقومه ،من ذلك الابداع الروائي كله عودا الى الواقع الذي نعيشه اليوم ، والذي سيعيشه قوم المستر ستيوارت في وقت لن يكون بعيدا الا بالقدر الذي يستغرقه تنفيذ « الحل النهائي » اليهودي وتجربته في عالمنا العربي) .

ولعل الاسطر التالية تعطينا صورة الواقع المجدب الذي بدأ منه هرتسل نزهته الى روايته الاولى « الارض القديمة الجديدة » و« روايته » الاخرى والاهم « الدولة اليهودية » :

« اي هواء عطن مدخن ! اي شارع ! ابواب ونوافذ لا حصر لها، مفتوحة وقد تكدست فيها وجوه مرهقة شاحبة . الجيتو (٧) ! اي حقد وضيع تحوح تعقب هؤلاء البائسين واضطهدهم بغير جريمة ارتكبوها الا جريمة الثبات على دينهم ! لقد قطعنا شوطا طويلا منذ تلك الازمنة (التي كان اليهود يعانون من الاضطهاد فيها بسبب ديانتهم) فالان يحتقر اليهودي لا لشيء الا لان انفه مقوس او لكونه متحكما في الناس بقوة المال ، حتى وان كان شحاذا لا يملك شروى نقير ».(٨)

ولو ان كاتب سيرة هرتسل ، أليكس بين ،الذي اخذنا هذا الاستشهاد عنه يقول ـ بحق ـ ان هذه الاسطر ، رغم ما فيها من مرارة وشفقة ،كتبت بقلم « متفرج يقف متباعدا بمعزل ، غير دار كم كان يهوديا ،حتى في تباعده ذاك ، في احساسه بالنأي عن عالم لم يكن يقدم اليه واقعا حيا » (٩) .

فما هو اللاواقع الكريه الذي كان هرتسل ينفلت منه هاربا في اختلاقاته القصصية المريحة لنفسه ؟ لنلق بالا الى هذه الفقرات من « ابداعه الروائي » الاكبر : « الدولة اليهودية » :

« ان المسألة اليهودية موجودة ، وانه ليكون من الغباء ان ننكر وجودها . فهي وعكة اليوم التالي لسكرة العصور الوسطى ، تلك الوعكة التي لا تستطيع اعظم الامم الحديثة تحضرا ان تتخلص منها. ولقد أظهرت تلك الامم شهامة وتسامحا عندما عتقت اليهود .والمسألة اليهودية موجودة حيثما وجد اليهود باعداد كبيرة . وحيثما لم يكن لها وجود ، يوجدها اليهود المهاجرون . فنحن (اليهود) نذهب ، بطريقة طبيعية ،الى تلك المناطق التي لا نعاني فيها من الاضطهاد ، فيكون ظهورنا في تلك المناطق باعثا على اضطهادنا .وذلك حقيقي ، ويجب ان يظل حقيقيا ، حتى في اكثر البلدان تقدما ـ وفرنسا اقوى برهان على ذلك ـ طالما ظلت المسألة اليهودية بغير حل سياسي . فاليهود الاكثر فقرا يأتون معهم بمعاداة السامية الى

---

(٦) Altneuland ، ويخبرنا كاتب اخر ممن كتبوا سيرة هرتسل ، هو Alex Bein ، ان شخصا اسمه سوكولوف ترجمها الى العربية ، وأعطاها ـ من خلال اللعب بالالفاظ ـ عنوانا من عنده هو « تل ابيب » « الذي اصبح فيما بعد اسما لاول مدينة مؤلفة برمتها من اليهود في التاريخ الحديث » . وقد اعتمدنا في عرضنا الموجز للرواية على الفصل السابع من كتاب اليكس بين ، والفصل الثامن والعشرين من كتاب ستيوارت .

(٧) وقد كتب هرتسل هذا الكلام عن جيتو روما الذي كان آخر ما انهدمت اسواره من تلك الاحياء في اوروبا .

(٨) Alex Bein « Theodore Herzl » , A Biography, East and West Library , London . P . 57 .

(٩) نفس المرجع ، ص ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

انجلترا ، وقد اتوا بها فعلا الى اميركا .

واعتقد اني افهم معاداة السامية ، وهي حركة بالغة التعقيد . واني افحص تلك الحركة كيهودي ، بغير كراهية وبغير خوف . واعتقد اني اعرف فيها على تلك العناصر التي لا تزيد عن كونها فكاهة فظة ، وحسدا ، وتحيزا موروثا ، وتعصبا دينيا : الا اني اعرف فيها ايضا على عنصر اخر هو الدفاع اللاشعوري عن النفس. فالمسألة اليهودية ، في اعتباري ، لا هي اجتماعية ولا هي دينية ، حتى وان اصطبغت بهاتين الصبغتين . انها مسألة قومية . ويجب علينا ، لكي نحلها ، ان نحولها قبل كل شيء اخر ، الى قضية سياسية عالمية يجاب عليها في محفل الشعوب المتحضرة .

اننا شعب ، شعب واحد . ولقد حاولنا ـ بصدق واخلاص ـ ان نختفي (نذوب) ، في كل مكان ، في الجماعة المحيطة بنا والا نحتفظ الا بدين آبائنا . لكننا لا يسمح لنا بأن نفعل ذلك . وبلا جدوى ، نبدي ولاءنا ، في بعض الاماكن نبدي وطنية زائدة عن الحد . بلا جدوى نقدم التضحيات من الدم والذهب التي يقدمها زملاؤنا من المواطنين. وبلا جدوى نسهمت في زيادة مجد الوطن وبانجازاتنا في الفن ، والعلم ، وزيادة ثروة اوطاننا باسهاماتنا في نشاطها التجاري . في اوطاننا ، وقد عشنا في بعضها قرونا ، نشجب بوصفنا غرباء ودخلاء : وفي معظم الاحيان يشجبنا اولئك الذين لم يكن اجدادهم قد حلوا بالبلد بعد عندما كان اجدادنا مقيمين فيه يتنهدون . فالاغلبية هي التي تقرر من الدخيل على البلاد ، فهي مسألة قوة ، كما هي الحال بالنسبة لكافة العلاقات القومية .. » (٩) .

ولن نتوقف كثيرا عند الحيل السوفسطائية في هذا الكلام ، لئلا نبتعد عن الخط الرئيسي الذي نحاول استظهاره ، لكن لا بد من وقفة قصيرة على اي حال . فأسلوب معالجة العقول وغسل المخ يلمع هنا كأبرع ما يكون . ولا غرو ، فمبدع الصهيونية والدولة اليهودية يعلم « بذكائه » اليهودي ـ كما تعرف سلالته الراكبة اكتاف الغربيين وعقولهم الان ـ كل ما تقضيه مخاطبة « الشعوب الاوروبية المتحضرة » من الالمام بعقدها التاريخية (« وعكة اليوم التالي لسكرة العصور الوسطى ») وضروب خيلائها الحضارية (« شهامة وتسامحا .. عتقت اليهود .. اكثر البلدان تقدما .. محفل الشعوب المتحضرة » الخ) كما يجيد ذلك الفن الرفيع الذي اوصله احفاده الصهاينة الى ذروة الكمال : فن اذلال تلك الشعوب اخلاقيا واصابتها باحساس مرضي بالذنب (« اليهود الاكثر فقرا يأتون معهم بمعاداة السامية .. وقد حاولنا ان نختفي .. والا نحتفظ الا بدين ابائنا .. وبلا جدوى نسنميت في زيادة مجد الوطن بانجازاتنا في الفن والعلم وزياده ثروه اوطاننا .. اجدادنا مقيمين فيها يتنهدون » الخ).

وجنبا الى جنب مع ذلك كله ، او بالاحرى في داخله ومن خلاله ضرب آخر اعتى وافعل من اساليب معالجة العقول وغسل الامخاخ ، رغم ما بين الكلام الاول والكلام الثاني من تناقض وتضاد ، في عملية احياء لا تبارى لمناهج السوفسطائيين القدامى . ودعك من قوله ان اليهود شعب ، وشعب واحد ، وانظر الى قوله ان اليهود الاكثر فقرا يأتون معهم بمعاداة السامية وقوله ان معاداة السامية لا هي مسألة اجتماعية ولا هي مسألة دينية (وهو يتحدث عن « المسألة اليهودية » و « معاداة السامية » باعتبارهما متطابقتين) ثم قوله انه يتعرف في معاداة السامية على عناصر منها الحسد والتحيز والتعصب الديني . وحتى ذلك كله دعك منه ، وركز انتباهك على قوله انه يتعرف في معاداة السامية على عنصر آخر هو الدفاع اللاشعوري عن النفس ، واقرن ذلك بقوله عن انجازات اليهود في العلم والفن وزيادة « ثروة الاوطان » ، واشارته الى تجبر الاغلبية لان المسألة مسألة قوة .

ولقد قال كزافييه فالا ان « اليهودي اجنبي لا يقنع بالعيش في الارض التي يتخذها وطنا موقوتا . فحقوقه الطبيعية بوصفه انسانا اسمى ينتمي الى جنس اسمى خلق ليسود العالم ، تجعله لا يقنع بأقل من تسيد تلك الارض وفرض سلطانه عليها .» (١٠)

لكن قائل هذا الكلام اتهم بأنه نازي فرنسي . فلنتركه ونتجه الى يهودي صهيوني باحثين عن تفسير لعدم انتماء اليهودي الى اي وطن اممي يحل به وعدم قبوله بأن يعيش كسائر خلق الله فردا عاديا في ذلك المجتمع مهما تسامح معه وفتح له ابواب الثراء وتحقيق «نبوغه» اليهودي الفذ الذي يتحدث عنه هرتسل ويقول انه مكن اليهود حيثما حلوا من زيادة مجد الاوطان بانجازاتهم في الفن والعلم :

« ان الاستيعاب الحق ، اي تحقيق المساواة الحقيقية نوعا واسلوبا ، لا يكون ممكنا الا من خلال التزاوج بين اليهود وغير اليهود (اي الاميين السائمة ـ وتلك كارثة اوفقنا المستر ستيوارت على عواقبها النكبائية كما اوضحنا فيما سبق ، وعلى اي حال فالصهاينة يعتبرونها خطيئة مميتة) . الا ان ذلك لا يكون ممكنا على نطاق واسع الا عندما يكون اليهود قد احرزوا مقدما من السطوة الاقتصادية ما يكون قد جعل ضروب التحيز الاجتماعي القديمة ضدهم تختفي تماما » . (١١) .

فان غمض علينا هذا الكلام الملتوي ، وقصرت اذهاننا الاممية الفجة عن الالمام بمعانيه ، اتجهنا الى هرتسل لنجد عنده القول الصريح الواضح :

« لكن هذا الشرط المبدئي للامتصاص (استيعاب اليهودي في مجتمع اممي) لا سبيل الى بلوغه ، لانه سيعني اخضاع الاغلبية(الاممية) لاقلية (يهودية) ظلت محتقرة الى عهد قريب ولا تحتكم في السلطة الادارية والعسكرية » . (١٢)

فالمسألة ليست مسألة اجتماعية او دينية ، بقدر ما هي مسألة قومية ، كما يقول هرتسل تماما . مسألة قومية اسسها ودوافعها ومراميها عنصرية بحتة . فهي مسألة جنس اسمى لا يطيق ان يعيش بين الاجناس الاممية النجسة الوضيعة التي اجبره اضطهادها وطغيانها على التشتت في اوطانها ، دع عنك ان يندمج فيها او يتساوى بها . ولقد كان هرتسل ، لذلك ، منطقيا مع يهوديته ومراميه العنصرية عندما اكد أن « المسألة اليهودية » ـ وان اصطبغت بالصبغتين الدينية والاجتماعية ـ ليست كذلك ، وكان ـ في الوقت ذاته ـ منطقيا مع الواقع الاممي (= اللاواقع اليهودي) ، من حيث انه كتب كل ما كتب ، وابدع الصهيونية ودعا لها ونشرها ، وهو متواجد في مجتمعات اممية كانت قد « عتقت » اليهود ، لا بل اطلقت لهم الحبل على غاربه ليصولوا ويجولوا فيها « ويفنوها باسهاماتهم المتفوقة في التجارة والعلم والفن » على حد قوله ، ولو كان اليهود منبوذين او مضطهدين او مطاردين في تلك المجتمعات لما بات بوسع هرتسل ان يخرج على العالم بدعوى التفوق العنصري المتضمنة بشكل اساسي في الصهيونية ، ويروجها ويدعو لتحقيق احلامها من موقعه في قلب تلك المجتمعات الاممية التي ظل يروح ويجيء فيها ، ويكتب وينشر ، معززا مكرما ، ويجتمع ـ كلما راق له ذلك ـ برساستها وقادتها وزعمائها وملوكها .

وما من شك في ان المروجين لدعاوي الصهيونية يدركون ذلك كله ويفهمون مغزاه . ولذا فاننا نجد كاتبا كأليكس بين حريصا على ان يؤكد لقارئه ان (ما نصفه بالواقع الاممي) لم يزد عن كونه « فترات استراحة متقطعة بين فترات اضطهاد ، او فترات من « الرفاهية السياسية لليهود » كانت تطول جيلا او جيلين » ، وفي وجه الادلة

---

(١٠) ريمون آرون ، « دجول ، واسرائيل ، واليهود » ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ١٣ .

(١١) اليكس بين ، « هرتسل » ، ص ١٦١ .

(١٢) نفس المرجع، نفس الصفحة .

التاريخية الماثلة على عسف ذلك القول ، يستشهد ذلك الكاتب ـ اخذا عن استاذه هرتسل ـ بما يعتبره دليلا لا يدحض على استمرار اضطهاد اليهود دينيا واجتماعيا ، وما ذلك الدليل الا الحكايات الشعبية والامثال التي تناقلها الشعوب والتي تثبت بما لا يقبل الشك معاداة تلك الشعوب الامية للسامية ! وبصرف النظر عن ان تلك الحكايات الشعبية والامثال القديمة ما من شك في انها حصيلة ثقافية تخبرات تلك الشعوب الاممية بويلات معاشرة اليهود على مر القرون ، وبصرف النظر ايضا عن ان « ادانة » تلك الشعوب بمعاداة السامية استنادا الى امثالها وحكاياتها الشعبية القديمة ضرب بالغ الصفاقة من ممارسة « البوليسية الفكرية » (اذا ما استعرنا ذلك المفهوم الاورلي ـ نسبة الى اورول) تجاه تلك الشعوب، فان العسف الفكري والتلفيق الاخلاقي يتضحان في وثوب الكاتب الصهيوني من ادانة الاممين باضطهاد اليهود استنادا الى امثالهم وحكاياتهم الشعبية الى القول : « وهكذا فانه بمجرد بلوغ اليهود لمرحلة الرفاهية السياسية ، يبدأ احتقار القرون الطويلة في التحرك، وبعد فترة قصيرة من التسامح ، تستيقظ العداوات القديمة » (١٣). وبطبيعة الحال لا يعني احد بأن يقول لنا ما الذي جعل خبرات تلك الشعوب ترسب في وجدانها القومي كل تلك الحزازة تجاه اليهود، لكنه لا حاجة بأحد ـ فيما نظن ـ الى البحث عن تفسير لتلك الحزازة ، لانه يكفي ان تلك الشعوب اممية (= سائمة منحطة) وانها، تبعا لاميتها وانحطاطها تطوي الجوانح على الحسد والشر والعداء للبشر المتفوقين ،شعب الله المختار .

ومع ادراك الكتاب الصهاينة لمدى انحطاط اذهان الاممين ، فانهم يدركون ايضا ان عليهم ـ مرحليا ، والى ان يتم وضع كل تلك القطعان من السائمة الاممية موضعها الصحيح الذي خلقها الاله لاجله ، اي تحت اعجاز اليهود الطاهرة ـ ان يواصلوا عملية الاحتيال الفكري على تلك الاذهان الاممية ، كاجراء ضرورة موقوت ، يشبه اضطرار صاحب المزرعة الى محايلة حيواناته الابقة الى ان يدخلها الحظيرة .. او المذبح . ولذا فان اليكس بين ، مخاطبا الاذهان الاممية المتحضرة التي ينتمي اليها المستر ستيوارت ، يدرك ان تلك الاذهان ـ مهما اعماها « النبل والتحضر » ـ ليست من الغفلة بحيث تكفي حكاية الامثال الشعبية لاقناعها بأن اضطهاد اليهود « اجتماعيا ودينيا » ظل مستمرا بحيث اضطرهم الى التصهين ورفض التعايش مع الاممين في مجتمعاتهم الحيوانية ، فيقول :

« والشكل الحديث من معاداة السامية الذي يجب ان تفرق ، بشكل اساسي ، بينه وبين الكراهية التاريخية القديمة لليهودي،نجم، في رأي هرتسل ، من « عتق » اليهود . فتحرير اليهود من الجيتو تأخر اكثر مما يجب (!) (وانظر هنا الى جمال العقل اليهودي وهو يعمل :

« فاليهود (وقت عتقوا) لم يكونوا مستعدين للعتق ، وبوجه خاص في تلك المناطق (من المجتمعات الاممية) التي كانوا يشغلونها ، لان « ضغط الظروف » كان قد تمخض عن ظهور طبقة متوسطة من الناس (من اليهود) ولم يكد اولئك الناس يعتقون حتى باتوا يشكلون من فورهم عنصر منافسة رهيبا للطبقة المتوسطة المسيحية . وهكذا بات اليهود واقعين تحت ضغط مزدوج ، بوصفهم يهودا ، وبوصفهم منتمين الى البورجوازية » (١٤) .

وبالرغم من كل براعات لاعب « الثلاث ورقات » التي يتحلى بها الكاتب واستاذه ، وكل ما تنطق به تلك البراعات من عناصر عملية غسل الامخاخ الاممية التي أوشكت من طول ما غسلت ان يصيبها البله ، فان الكاتب الصهيوني « بين » يغرب من الحقيقة باكثر كثيرا مما استطاع (او جرؤ) المستر ستيوارت ان يقترب . ولا مأخذ طبعا على ستيوارت في خوفه من ولوج تلك المناطق الخطرة (لانها مفضية الى ابواب الحقيقة) التي يملك المستر اليكس بين ان يلجها باعتباره صاحب القضية وباعتباره اقدر على الالتواء في استخدامها بحيث تحقق له ما يرمي اليه دون ان يقترب من ابواب الحقيقة . والمسألة التي نشير اليها هنا هي تلك التي وجدناها غائبة تماما من فكر ستيوارت ومنتفصة من قيمة عرضه لما مسه مسا حذرا رفيقا من قضايا ، اي مسألة الرابط العضوي بين خروج اليهود في اوروبا ما بعد الانقلاب الصناعي من « الجيتو » وبين استيلاء البورجوازية الاوروبية على ادارة مجتمعاتها من سادة تلك المجتمعات القدامى ، بالشكل الذي ركزنا عليه في المقالين السابقين . غير ان اليكس بين ـ كأي صهيوني يجد نفسه مواجها بالتناقض المتمثل في خروج اليهود من الجيتو وتحررهم وتحولهم الى شركاء في المجتمعات الاوروبية التي تصدرتها واستولت على مركز الثقل الاجتماعي والاقتصادي وبالتبعية : السطوة السياسية ، ويجد في ذلك التناقض ما يكشف عن كذب دعاوى « الاضطهاد » الاممي الحديث لليهود ـ اليكس بين هذا لجأ الى « ورقة الجوكر » اليهودية التي كسب بها الصهاينة كل جولاتهم مع الاوروبيين المعاصرين : ونعني بها حكايتهم ـ التي استعرضناها فيما سبق ـ مع البورجوازية الالمانية ، وببراعة « لاعب الثلاث ورقات » خفيف اليد الذي يعتمد على سفاهة ضحاياه واستعدادهم للتصديق ، يجعل من تلك الجولة اليهودية مع البورجوازية الالمانية التي مولت هتلر وخاضت معركتها مع البورجوازية الاوروبية والبورجوازية اليهودية من خلال سعاره النازي (الذي قلنا ان اسرار شحانه مع السعار الصهيوني قد تتكشف يوما) ، يجعل من تلك الجولة «وضعا عاما » لليهود مع كل المجتمعات الاوروبية ، ويقول :

« (وهكذا) فان المساواة في الحقوق التي يكفلها لهم (لليهود) القانون يلغيها الواقع (الاممي) . فتشن عليهم حملة دعائية تدعو الى مقاطعتهم واخراجهم من دنيا الاعمال ، وتتزايد ضدهم من يوم الى يوم الهجمات العلنية وضروب التفرقة والتمييز والابعاد من مجالات بعينها . وتتباين اشكال الاضطهاد التي تمارس ضدهم ، من حيث طبائعها ومسمياتها ،من بلد (اممي) لاخر ، ومن طبقة لاخرى، الا انها ـ في مقوماتها الجوهرية ـ تظل واحدة ، ففي كل مكان يجد اليهود انفسهم محاطين بنفس « العدو »،وفي كل مكان يجدون انفسهم واقعين تحت نفس الضغوط ..» (١٥) .

وعلى ضوء كارثتنا ، نحن العرب ، مع تلك المجتمعات الاممية « المتحضرة » واليهود الذين تتعهدهم وترعاهم وتتكتل في مجال تمكينهم من تثبيت اقدامهم في أول شريحة من ارض عربية اغتصبوها بمساعدة كاملة منها ، وابادة شعبها ، تمهيدا لاخذ بقية الارض وازالة من عليها ، على ضوء كارثتنا هذه التي تدخل اليوم مرحلة من ابشع مراحلها ، ليعذرنا السادة الاممييون المتحضرون اذا لم نسلم قياد عقولنا نحن ايضا لليهود المساكين المضطهدين ، وليعذرنا المتحضرون النبلاء على حسابنا اذا ما اختلفنا عنهم (ونحن ، على اية حال ، مختلفون ومتأخرون) ورأينا في كل هذا الهراء الصهيوني تكملة للهراء التوراتي القديم ، وقرأنا في هذا الهراء وذاك الهراء شيئا واحدا فقط ولا شيء غيره هو ان اليهود جنس اسمى فوق كل البشر ،بل هم البشر وكل من عداهم سائمة لا يحسب لها حساب . هل يقيم احد من المتمدنين النبلاء وزنا لما يحدث الان لشعب فلسطين ؟ ومن خلال قراءتنا ـ على ضوء واقعنا نحن ـ لحقيقة « المسألة اليهودية» يمكننا ان نفهم حكاية « تمشي هرتسل من الواقع (الاممي) الى الاختلاق القصصي » التي اشار اليها المستر ستيوارت ، في اطارها

---

(١٣) نفس المرجع ، ص ص ١٦١ ـ ١٦٢ .
(١٤) نفس المرجع ، ص ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .
(١٥) نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

العنصري الحقيقي . ولقد فطن اليكس بين ، وهو منطلق لا يعوقه شيء في تدبيج هرائه الذي سقنا امثلة منه ، الى ان العنصرية تنطق بل تصرخ من خلال اسطره وافكاره ، فوضع في وسط الكلام نجمة صغيرة ، وامام النجمة ، بأسفل الصفحة ، في الهامش (ص ١٦٢) اكد لنا ، والله العظيم ، ان « هرتسل رفض النظرية العنصرية »وقال بعد لقاء له بزانجفيل » انه (اي العم زانجفيل) يتقبل وجهة النظر العنصرية » اما هرتسل : « فيكفي ان انظر اليه (زانجفيل ذاك) والى نفسي لكي ارفضها » (ولديه حق . فاي انسان عاقل يمكن ان ينظر الى اليهود ويتقبل الادعاء بانهم جنس أسمى ! ويبدو ان خاطرا كهذا خطر لهرتسل وهو يكتب ذلك الكلام ، لانه استدرك قائلا :) « والذي اعنيه اننا نمثل وحدة تاريخية ذات تنوعات انثروبولوجية .. واية امة تلك التي تتمتع بوحدة الجنس » . وعلينا طبعا ـ الا اذا كنا مصممين على ان نظل همجا ومتوحشين ـ ان نصدق هذا الكلام ، ما دام هرتسل قاله . ولكن ما حيلتنا فيما تصرخ به دعاوى اليهود وافعالهم ؟ نستطيع طبعا ان نتعامى كالمتحضرين . لكن المتحضرين يظنون انهم بمأمن ، ويظنون انهم يكترون اليهود علينا ، فيقرنون التحضر والنبل بالفائدة العملية ، وتصفية الحسابات القديمة المعلقة والحسابات الجديدة سواء بسواء . ولذلك فاننا ، تصورا منا ، نأمل الا نكون مخطئين فيه او متفائلين اكثر مما يجب ، بأن هناك من الامميين الاوروبيين (امثال المستر ستيوارت) أناسا ما زال هناك امل يرجى من مخاطبة عقولهم (ودعك من الضمائر)، نرجو ، بشيء من الصفاقة الهمجية المتخلفة والاقتحام غير المهذب ، ان ننطفل فنوجه الانظار الى أوجه القضية العنصرية الصارخة التي تعمى عنها الابصار .

يقول ستيوارت ان رواية هرتسل ،« الارض القديمة الجديدة » امتازت بانها اليوتوبيا الوحيدة في تاريخ الابداع الروائي التي ادت افكار مبدعها « ايضا » الى خلق دولة . ونحن نعرف اية يوتوبيا خلقتها افكار هرتسل على ارضنا ، فلننظر الان في اليوتوبيا التي ادت تلك الافكار عينها الى اختلافها على الورق ، فلعل الثانية تلقي بعض ضوء على الاولى .

تدور الرواية حول صديقين : دكتور يهودي في الفانون ، في الثالثة والعشرين من عمره ، وسيم ، حزين ، ويائس ، من اهالي فيينا ـ وضابط بروسي سابق ذهب الى اميركا وعاد منها مليونيرا « بعد ان خانته زوجته مع ابن اخيه ». ونتيجة لتلك الكارثة، ينقلب ذلك الضابط السابق ، ويدعى كينجزكورت ، كارها للبشر ، والنساء بوجه خاص ، ويصبح شعاره « ان نكون انسانا هو ان نكون وضيعا ـ وكل فرصة تغتنم ما هي الا نوع من القسوة وسمسرة الفحشاء ، فتجنب البشر ان كنت لا تريد ان تتيح لهم الفرصة كي يخربوا بيتك ! »

ولما كان المستر كينجزكورت هذا كارها للنساء ، فانه يضع اعلانا في احدى الصحف (يقول المستر ستيوارت انه شبيه باعلان خطر لهرتسل ذات مرة ان ينشره في الصحف الفرنسية)يطلب فيه « شابا متعلما ، مستيئسا او « مستقتلا »، يريد ان يجرب بحياته تجربة جديدة » . ويسارع الشاب اليهودي الوسيم المحزون ، بعد ان هجرته حبيبته ارنستين لتتزوج من سمسار احول قبيح لكنه ثري ،فيرد على الاعلان .

وعندما يلتقي الشاب ، فردريك ، بالضابط كينجزكورت الذي اشترى ارخبيلا في البحار الجنوبية ، ويختا ، وانصرف بعد ذلك الى البحث عن رفيق دائم من الذكور ، يقول له ذلك الضابط الذي يبدو ان خيانة امرأته له اصابته بالشذوذ الجنسي :« يجب ان اذكرك انك تأخذ على عاتقك التزاما يدوم مدى العمر . على الاقل يجب ان يدوم (ارتباطنا) ما دمت انا حيا ارزق . فان أنت جئت معي الان لن يكون هناك نكوص . ولن تكون هناك نساء » ويقبل الشاب اليهودي الوسيم المحزون . لكنه ، قبل ان يبدأ القيام بمهام منصبه ، كرفيق دائم للهر كينجزكورت ، يقوم ، فيما يخبرنا المستر ستيوارت ، بمساعدة اسرة ولد يهودي متشرد ، اسمه ديفيد ليتفاك ، بالهجرةالى فلسطين .

ويذهب المغامران ، اثناء تجوالهما ، بناء على اقتراح الهر كينجزكورت ، الى فلسطين (١٩٠٣) اي وهي تحت الحكم العثماني ، ويصف لنا المؤلف يافا (التي باتت الان بالنسبة لقوم المستر ستيوارت وغيرهم من الاوروبيين المتحضرين ، مجرد « ماركة اسرائيلية مسجلة » على صناديق البرتقال ، وفي افضل الاحوال دليلا على التقدم الذي حمله الاسرائيليون معهم فانبتوا البرتقال من ارض العرب الوات)فيقول ان « الازقة كانت قذرة (وهذه كلمة يلذ وقعها في الاذن الاوروبية المتحضرة ، خاصة عن العرب) ومهملة وتفوح بالروائح النتنة . وفيكل مكان كان الشقاء كاسيا خرقا شرقية فاقعة الالوان مهلهلة . اتراك فقراء ، وعرب قذرون ، ويهود خائفون ، يقفون متهالكين ، يتلكعون ، بكسل وتراخ ، معدمين ، بلا امل» . وفي القدس يشمئز الرفيقان من منظر الشحاذين وهم يصلون عند حائط المبكى . ويهربان بسرعة من ذلك المكان الموبوء ، فيبحران في قناة السويس ذاهبين الى جزيرة لهما وحدهما يعيشان فيها عشرين سنة كاملة . بغير نساء بطبيعة الحال ، وبغير عرب او اتراك او يهود فقراء .

وبعد عشرين سنة من هذا الانعزال والتباعد وراء أسيجة الخضرة بجزيرة في وسط المحيط لا وراء أسوار جيتو في مدينة أوروبية (ومما يحمد للمستر ستيوارت حقيقه في هذا الموضع المغري باظهار الولاء انه كف نفسه فلم يتطوع ويقل لنا ان ذلك الانعزال ايضا ـ كما في حالة الجيتو ـ كان للتعبد والتمعن في جمال يهوه من خلال الاسفار المقدسة والتباعد عن نجاسات العالم الاممي ووحشيته) ، يعود الرفيقان : البروسي الارستقراطي الثري الذي يمثل صفوة الصفوة الاوروبية بغير شك بالنسبة ليهودي « متجرمن » كهرتسل ، والفتى اليهودي الجميل الطيب المحزون الذي يمثل الصفوة التي ما بعدها صفوة : صفوة البشر الحقيقيين ، يعود الرفيقان الى الارض المبتلاة ، فلسطين ، كما يعاود المرض الخبيث الجسم الذي علق به وبعد ان علق به لن يبرحه .

ويقول لنا المستر ستيوارت هنا (غير مدرك ، ربما ، انه يقترب من الحقيقة كثيرا) ان الرفيقين لم يعودا الى فلسطين لانهما ـ لا قدر الله ـ سئم الواحد منهما احضان صاحبه ، بل لان «فضول» الهر كينجز كورت اعادهما الى « عنبة » العالم . ولو قال المستر ستيوارت « تواطؤ » الهر كينجز كورت بدلا من « فضوله » ، لقارب الحقيقة اكثر والتقط ما انطوت عليه تلك العودة من رمزية . فاعادة المستر كينجز كورت صاحبه اليهودي بارع الحسن اليائس المحزون الى « أرض الميعاد » ليست مجانية او عفوية بكل ذلك القدر . لانه ما من شك في ان « تمشي » اليهود عودا من اختلافاتهم القصصية التوراتية والصهيونية الى حيث صنعوا الواقع الرهيب الذي تعيشه فلسطين والعالم العربي كله من حولها ، اليوم ، وسوف يعيشه غدا قوم المستر ستيوارت والهر كينجز كورت ، لم يكن ليصبح ممكنا مهما اوتي اليهود من براعة ومهما تواثبوا على الحبال كبهلوانات السيرك ـ لولا التواطؤ الاجرامي (لانه قام دائما على كون العرب « لا ـ أناس ، لا ـ بشر » ، على النحو الذي أوضحه لاعضاء مجلس العموم البريطاني مجددا المستر هاكوهين) لقوم المستر ستيوارت والهر كينجز كورت . واصغ للكاتب الصهيوني اليكس بين وهو يقول عن « الطلب على عرضحال تمغة » الذي قدمه هرتسل الى وزارة الخارجية البريطانية في ١٢ نوفمبر ١٩٠٢ (أي قبل زيارة بطليه في رواية « الارض القديمة الجديدة » بسنة واحدة ، مطالبا بسيناء :

« (ولقد تضمنت تلك العريضة) صياغة لمخطط هرتسل لنقل

اليهود واسيطانهم كانت أول تجسيد في وثيقة سياسية جادة (لرؤاه) في « الدولة اليهودية » و « الارض القديمة الجديدة » ، وكانت ايضا أول مطالبة عملية بإقامة دولة لليهود تقدم الى حكومة من الحكومات بوصفها اجراء قابلا للتنفيذ » (١٦) .

ولقد ردت وزارة الخارجية البريطانية على مقدم الطلب بالكتاب التالي نصه :

« الدكتور تيودور هرتسل المحترم ،
٢٩ هاينسينجرشتراسي
فيينا ـ النمسا .

سري

سيدي :

بناء على تعليمات الماركيز لاندز آون أتشرف باحاطتكم علما بتسلم كتابكم المؤرخ في ١٢ من الشهر الماضي ، الذي مر على وزارة الخارجية وبركه بمكاتبها المستر جرينبرج (!) والخاص بما هو مقترح من اقامة مستعمرة يهودية في شبه جزيرة سيناء .

ولدي تعليمات بأن أخطركم بأن اللورد لاندز أون قد اتصل بوكيل صاحب الجلالة وقنصله العام بالقاهرة فيما يتعلق بطلبكم المذكور أعلاه وانه قد تسلم الآن برقية من الايرل أوف كرومر بخصوص الموضوع .

ويوصي اللورد كرومر بقوة ـ قبل اتخاذ أية خطوات أخرى في الموضوع ـ بأن يقوم منظمو المشروع بارسال لجنة صغيرة الى شبه جزيرة سيناء لتقديم تقرير عن الموقف ولتكوين رأي عن مدى قابلية المشروع للتنفيذ .. » (١٧) .

وكان ذلك الخطاب ، فيما يخبرنا آليكس بين ، الاول من سلسلة طويلة من المكاتبات تبادلها قوم المستر ستيوارت مع هرتسل والصهاينة باعتبارهم أصحاب سيناء وغير سيناء ويتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه : الارض ومن عليها .

لهذا فلنا ان المستر ستيوارت كان حريا بأن يقترب من الواقع ومن مغزى الرمز اكثر فيما يخص اعادة الهر كينجز كورت للفتى اليهودي اليائس الحزين الى « أرض الميعاد » ، وهو المغزى الذي لم يمر به الكاتب الصهيوني آليكس بين مر الكرام ، بل توقف عنده واستظهره جيدا : فاثناء زيارة كينجزكورت والفتى فردريك الاولى لفلسطين ، يلتقيان بطبيب عيون يهودي روسي يخبرهما عن المستوطنات اليهودية الجديدة ، ويأخذهما ليريهما « ارض اليهود القديمة وهي تزهر من جديد » ، فيشاهدان مستوطنة « ريشون لوزيون » ومستوطنة « رحابوت » وسط أرض العرب الذابلة الموات » ، ولنصغ الى عرض بين :

« .. فاشتعل كينجزكورت حماسا .. لان ذلك اللايهودي (الاممي) رأى بطبيعيته السوية الصادقة مغزى فلسطين والمهام الملقاة على عاتق اليهود وقدرات اليهود بعين اكثر صفاء وحدة .. » . وفيما بعد ، وهما مبحران بالبحر الاحمر ، يقول كينجزكورت لصاحبه اليهودي ان موسى لو عاد من جديد لضحك ضحكة رهيبة وهو يرى ضآلة الجهد الذي يبذله البشر لاستغلال التقدم التقني الذي توصل اليه العالم ، ثم يندفق قائلا بحماس اوروبي بالغ التحضر : « ان كل ما يلزم لخلق عالم جديد أفضل موجود في متناول اليد . أما والله ! أتعرف من الذي يمكن ان يشق الطريق ؟ أنتم ! أنتم اليهود ! ليس لديكم ما تجازفون بفقده . يمكنكم أن تبنوا البلد التجريبي للعالم ، هناك ، حيث كنا (في فلسطين المسكينة) تخلقون الارض القديمة الجديدة على تلك الارض الضاربة في القدم » (١٨ .

وفيما بعد (بعد عقدين على الجزيرة) يصمم كينجز كورت على جر صاحبه اليهودي اليائس الذي « تحول بعد عشرين عاما من الحياة لاصقا بالطبيعة الى رجل ـ شجرة » (فهرتسل يبيع في الرواية خطا أساسيا يقوم على تصوير اليهود بالقوة الهائلة من الطاقات والامكانيات الكامنة التي حولها اليأس والاضطهاد الى خمود وتباعد عن « الفعل » وعزوف عن التحقق ، وبتصوير آخر كينجز كورت في صورة الاوروبي المتحضر الواعي بطاقات اليهود والمهام الحضارية العظمى الملقاة على عاتقهم : شق الطريق الى « خلق العالم الجديد » الذي تكون فلسطين نموذجا رائدا له ، أي اعادة خلق الحضارة الغربية) فالاوروبي الواعي كينجزكورت يأخذ « أمله » ، الفتى اليهودي ، ليشعل حماسه هو ايضا ، لانه يرامي الى سمعه أن « فلسطين لم تعد أرضا فاحلة مجدبة » ويجب لذلك معاينة التحول العظيم الذي تنبأ كينجزكورت في ختام الزيارة أن أحدا لن يستطيع تحقيقه الا اليهود .

وتكون أول مفاجأة تقابلهما في رحلتهما الجديدة (أو بالاحرى أول أمل صهيوني يتحقق في تلك الفانتازيا) « ان خليج السويس لم يعد مزدحما بالملاحة الدولية كما كان في المرة السابقة ، وعندما ينزلان في بور سعيد يجدان أنه ـ بالرغم من حركة الشحن التي ما زالت نشطه بالميناء ـ لم يعد بالمدينة أي نشاط يذكر . فالاسواق الحقيرة لم تعد تضج بالحركة ، ولم يعد يزحمها ذلك المهرجان زاهي الالوان الذي كانت تسمع فيه كل لغات العالم وتختلط كل شعوبه . فلقد كانت بور سعيد فيما سبق ملتقى طرق العالم ومقصدا لكل من يسافر من الغرب الى الشرق او من الشرق الى الغرب ، وكان كل هواة الاسفار من الاثرياء يحبون أن يمروا ببور سعيد ، اما الآن ، فباستثناء الاهالي لم يعد بالمدينة الا حفنة من البحارة السكارى يتسكعون امام مقاهيها القذرة » . والذي حدث ان فلسطين الجديدة باتت مركزا أساسيا لكل المواصلات فأفرغت بور سعيد من السياح . ويسارع الرفيقان المتحضران بالهرب من ذلك المكان الفقير المتخلف الموبوء ، بور سعيد ، ذاهبين الى حيفا التي « باتت آمن وأفضل ميناء بالبحر الابيض المتوسط كله ، باتت مدينة عالمية دولية » . والواقع ان اليهود (في فانتازيا هرتسل) حققوا المعجزة التي توقعها وتتطلع اليها الهر كينجزكورت في سنة ١٩٠٣ ، اثر الزيارة الاولى :

« فلننظر الآن الى فلسطين (كما وجدها الرفيقان في زيارتهما الثانية) . فاراضيها تمتد شرق وغرب نهر الاردن . ورغم أن حدودها الشمالية والجنوبية غير محددة بوضوح ، فانها ، شمالا ، تمتد حتى تشمل سوريا الحديثة . والارض التي كانت ميتة (أثناء الزيارة الاولى) باتت الآن تضج بالحياة ، فملأتها المدن العظيمة والزراعة المتقدمة . فكل ما هو من آخر مستحدثات التكنولوجيا الحديثة مستخدم هنا . والبلد تتقاطع على رقعته خطوط للسكك الحديدية عديدة (« تماما كتقنية الطاقة الانسانية ») تربطه بشبكات السكك الحديدية العالمية الكبرى . ففلسطين باتت ملتقى لطرق العالم وبؤرة أساسية لخطوط مواصلاته . والنقل داخل البلاد بات في معظم الامر مكهربا . أما الكهرباء اللازمة لذلك كله فتولد من القوى المائية للبلاد ، وعلى وجه التحديد ، من الفدران التي تبدأ من لبنان وجبل الشيخ ، وكذا من تباين مستوى السطح (ويبلغ ذلك التباين اكثر من ألف قدم) بين البحر المتوسط والبحر الميت ، وهذان البحران باتت توصلهما قناة تمر في بعض الاجزاء تحت أنفاق ، ويقوم محط لتوليد القوى أقيم على شاطىء البحر الميت بتحويل قوة سقوط المياه الى كهرباء . كما باتت الثروة الكيماوية للبحر الميت مستغلة ، ولذا فان المنطقة باتت اكبر مركز في العالم لانتاج أملاح البروم والبوتاس ، اما الحجر الجيري القاري (البيتوميني) الذي يكثر بالاقليم ، فيستخرج منه « أفضل اسفلت في العالم » ، وكذلك يتوفر الكبريت والفوسفات بكميات هائلة لا تستنفد ، كما كشف التنقيب العميق بالاقليم عن مصادر لم تكتشف قبلا للنفط (وقد صدق تنبؤ هرتسل ، اذ نقب له المصريون عن حقول أبو رديس التي تستخرج منها دولته ٧ ملايين طن

---

(١٦) نفس المرجع ، ص ٤٢٣ .
(١٧) نفس المرجع ، الوثيقة رقم ١٢ .
(١٨) نفس المرجع ، ص ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩ .

من النفط الخام منذ سنة ١٩٦٧ الخالدة في تاريخ المجد) . والماء كذلك يستخدم ، بطبيعة الحال ، بكميات وفيرة ، (بحيث يمكن القول) ان خالقي الارض القديمة الجديدة الحقيقيين هم مهندسو الري الذين قاموا بتجفيف المستنقعات ، وري المناطق الصحراوية ومهندسو الكهرباء الذين انشأوا محطات توليد القوى .

وثقافيا ، كذلك ، باتت الارض القديمة الجديدة نداً لارقى بلاد العالم . ففيها معاهد متخصصة مستقلة كل على حدة للفلسفة والثقافة ، وفيها الاكاديمية اليهودية التي تضم اربعين عضوا ، والتي انشئت على غرار مجمع الخالدين (الاكاديمي فرانسيز) .. وغير مدينة حيفا العالمية ورد ذكر طبرية التي باتت منتجعا للمياه المعدنية ، والقدس الجديدة .. » (١٩) .

ورغم أن هرتسل يقيم « يوتوبيته » على اساس « انتفاء المداوات العنصرية » ويعيش « العرب فيها بود وصداقة جنبا الى جنب مع اليهود » ، يلاحظ دزموند ستيوارت بحق ان « هرتسل لم يلتق بأي عربي أثناء زيارته لفلسطين ، ويبدو أنه ـ باستثناء قوله انهم قد يصلحون للقيام بتطهير المستنقعات (في يومياته) لم يعرهم كبير اهتمام او يشغل باله بهم كثيرا » (ص ٢٩٥) . ولديه حق ، سيدنا هرتسل ، فهل كان لديه وقت لمقابلة العرب ايضا والتفكير فيهم وكل مواعيده محجوزة لسنوات بأكملها لمقابلة الملوك والرؤساء والساسة والممولين ورجال الدولة الاوروبيين المتحضرين ؟ ويقول ستيوارت ان هرتسل (على ضخامة عدد الرسائل التي كتبها) لم يكتب الا رسالة واحدة لشخص عربي نشرت ، وان لم يضمنها ما نشره من يومياته (ص ٢٩٥) . والرسالة التي كتبها هرتسل مشكورا لذلك العربي كانت ، على أية حال ، رسالة تهديد . فالشخص الذي وجهت اليه ، ويدعى يوسف الخالدي ، كان عضوا بالبرلمان العثماني عن القدس واصبح بعد ذلك عمدة لها . وقد انتابت ذلك العمدة العربي المسكين ، بصفته ممثلا للاغلبية العربية من سكان فلسطين ، انتابته الهواجس مما رآه بعيني رأسه من نشاط المندوبين الصهيونيين الخمسة الذين قابلهم في يافا والقدس اثناء زيارة قيصر المانيا لفلسطين ، وما حدثه به قلبه من نواياهم تجاه وطنه وشعبه . وقد شمر ذلك العمدة العربي عن ساعد الجد وحرر خطابا الى حاخام اليهود الاكبر في فرنسا يؤكد له فيه انه يكن أعمق مشاعر الود والاخوة تجاه اليهود (وهناك كثيرون يفعلون ذلك الان) ، الا أن قلبه غير مطمئن فيما يخص نوايا الصهيونيين تجاه وطنه . وبطبيعة الحال قام الحاخام من فوره بارسال المكتوب الى سيدنا هرتسل الذي تعطف ورد على ذلك العربي الاخرق مؤكدا له ان مخاوفه لا أساس لها (تماما كمخاوف « المتطرفين » العرب الآن) لان اليهود لا تساندهم اية قوة ذات نوايا عدوانية تجاه العرب ، كما انهم هم ايضا (أي اليهود الذين يقطر العهد القديم بدماء الشعوب التي « حرّموها » بحد السيف) ليسوا اهل حرب وطعان (انظر كم أثبتت خبرات العرب كلا التأكيدين !) . اما الاماكن المقدسة ، فانها ملك للبشر اجمعين) ودائما لا يعني احد بالتوقف لحظة ليتساءل : « ومن هم البشر على وجه التحديد ؟ ») وتبعا لذلك فانها مقدسة . ثم يضيف : « غير ان سعادتكم ترون صعوبة اخرى هي تلك المتعلقة بوجود السكان غير اليهود بفلسطين . ولكن منذا الذي يفكر في طردهم (من ذا الذي يفكر في ذلك حقا) ؟ وجدير بسعادتكم ان تفطنوا الى الحقيقة الماثلة في اننا اذ سناتي معنا برفاهيتنا وثروتنا سنزيد من رفاهية وثراء سكان فلسطين من غير اليهود » (وحري بمن يعجبون لطلب اسرائيل من مصر فتح الحدود وتبادل السياح ان يضعوا تلك الحقيقة التي أثبتها التاريخ المعاصر نصب اعينهم) . اما الطلب الوقح الذي تقدم به العمدة العربي بأن يتفضل اليهود مشكورين ويختاروا لهم وطنا آخر غير فلسطين ، فرد عليه هرتسل بصرامة ، أو ـ كما يقول ستيوارت ـ بتهديد مقنع مؤداه ان اليهود قد يفصلون ذلك حقا (اذا ما اصر العرب على الغباء وسوء النية) ، الا ان اليهود ، يا عزيزي العمدة ، سيختارون ذلك الوطن الآخر على حساب الاضرار بتركيا ، ولذا فانك ترى يا سعادة العمدة العربي ، انك ـ بوصفك رعية تدين بالولاء لتركيا ـ يجب ان تؤيد ، لا أن تعارض المخطط الصهيوني باخذ فلسطين .

ولقد قلنا ان أسس المسألة اليهودية لم تكن فعلا ، كما اوضح هرتسل لقرائه ، دينية او اجتماعية بقدر ما هي قومية ، وقومية على اسس عنصرية موهومة واعتسافية تجسد في هذه العصور جنون العظمة اليهودي الضارب في القدم . وانظر الى حكاية « الارض القديمة الجديدة » هذه ، فهي ناطقة بمفهوم التفوق اليهودي ، ودع عنك الايمان المحموم الذي جعل هرتسل بطله الاممي المفتون يرتعش به وهو يقول : « أنتم اليهود الذين تستطيعون دون غيركم تحقيق هذا وتحقيق ذاك » ، تماما كما يرتعش الاوروبيون المتحضرون الان بحمى الايمان بروعة اليهود وتفوقهم ، والق بسمعك الى صيغة التفضيل العليا التي كتبت بها كل الفقرات الخاصة بالروعة المديرة للرؤوس في الارض القديمة الجديدة كما « خلقها » اليهود : حيفا باتت اعظم ميناء في البحر المتوسط كله (ولا ندري لم جعلها المستر ستيوارت في عرضه للكتاب « افضل ميناء في شرق المتوسط » فقط ؟) (ص ٢٩٤) والبلد كله بات مركزا للعالم « ملتقى طرق العالم وبؤرة اساسية لخطوط مواصلاته » ، واكبر مركز للعالم في انتاج كذا وكيت ، وافضل اسفلت في العالم ، ونداً لارقى بلدان العالم ، وباختصار : البلد الذي ما بعده بلد ، بلد الشمس الاسمى الذي اختاره الاله ليقود العالم ويجلس على قمته .

ذلك هو « الواقع » اليهودي الذي هرب اليه هرتسل من اللاواقع المتمثل في معايشة اليهود للسائمة الامميين (الاوروبيين المتحضرين) انداداً لهم في مجتمعهم ، وكان هروبه (او تمشيه كما احب ستيوارت التعبير عنه) من ذلك الواقع الاممي الكريه الى الواقع اليهودي ، عبر اختلاقاته القصصية التي قلنا ان اهمها « الدولة اليهودية » كتابه العمدة الذي افرخ لنا اسرائيل في ارضنا . ونلاحظ ان هرتسل عندما كتب الى ذلك العمدة العربي المسكين مطمئنا قال له : « سناتي (أي قومه اليهود) برفاهيتنا وثروتنا معا » وفي وثيقته السياسية التي يقول اليكس بين انه ضمنها صياغة عملية لرؤاه في رواية « الارض القديمة الجديدة » و « الدولة اليهودية » ، وهي الوثيقة التي « مر بوزارة الخارجية البريطانية » يهودي اسمه جرينبرج (وتركها) طلبا للحصول من تركة صاحب الجلالة على عدد واحد سيناء ، يقول هرتسل لقوم المستر ستيوارت الذين يفهمون جيدا هذه الاشياء : « ان عظمة هذه المستعمرة (أي سيناء التي يعتبرنا الاوروبيون المتحضرون الان همجا ومتوحشين لاننا نطالب بأدب جم باستعادتها قطعة قطعة من براثن اليهود) ووعدها العظيم ، سيتمثلان في ضمان حقوق استعمارها ، وسيكون ذلك مصدر جاذبيتها الكبرى للشعب اليهودي . ولن يكون يهود اوروبا الشرقية الباحثين عن العمل هم الذين سيهاجرون اليها ، بل سيهاجر اليها اناس لديهم رؤوس اموال يستثمرونها في مشروعات كبيرة .. ومن روسيا واوروبا الشرقية ستنضم أعداد من اغنى اغنياء اليهود الى تلك الهجرة ، وانا اتحدث هنا عن معرفة دقيقة وخبرة شخصية » (٢٠) .

فالمسألة لم تكن مسالة اناس مطحونين فقراء ومضطهدين يبحثون عن ملاذ من الاضطهاد ، بل مسالة اناس يرون أن حقهم الالهي ، قدرهم الاعظم ، ان يكونوا على قمة العالم وان يعيدوا خلق الحضارة (كما قال كينجزكورت لرفيقه المحزون الوسيم) وان تكون عودتهم الى ارضهم التي وعدهم بها الاله مقابل « عزلتهم » المقدسة بداية الملك الصعود الذي لا يقاوم لشعب الاله المختار .

لندن

(١٩) نفس المرجع ، ص ص ٤٠٠ ـ ٤٠٥ .

(٢٠) اليكس بين، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ص٤٢٣ـ٤٢٤.